الحديث التاسع

التنطع

* **عن عبد الله بن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك المُتَنَطِّعون» قالها ثلاثاً.** رواه مسلمٌ، وأبو داود، وأحمد[1].

* وأخرج الدَّارميُّ بسنده إلى مِسْعَر قال: أخرج إليَّ مَعْنُ بن عبد الرَّحمٰن كتاباً، فحلف لي بالله أنَّه خطُّ أبيه، فإذا فيه:

قال عبد الله: والله الَّذي لا إله إلا الله! ما رأيت أحداً كان أشدَّ على المُتَنَطِّعين من رسول الله ﷺ، وما رأيت أحداً كان أشدَّ عليهم من أبي بكرٍ.

وإنِّي لأرى عمر كان أشدَّ خوفاً عليهم، أو لهم[2].

* وأخرج الدَّارميُّ عن عبد الله بن مسعود؛ قال: تعلَّموا العلم قبل أن يُقْبَضَ، وقبضُه: أن يذهب أهلُه. **ألا وإيَّاكم والتَّنَطُّعَ**، والتَّعَمُّقَ، والبدعَ! وعليكم بالعتيق[3].

* وعن ابن عبَّاسٍ، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ غداة العقبة وهو على راحلته: «هاتِ الْقُطْ لي».

فلقطت له حصياتٍ هنَّ حَصَىٰ الخَذْفِ، فلمَّا وضعتُهنَّ في يده؛ قال:

«بأمثال هؤلاء، وإيَّاكم والغلوّ في الدِّين، فإنَّما أهلك مَنْ كان قبلكم الغلوُّ

---

(١) مسلمٌ برقم ٢٦٧٠، وأبو داود برقم ٤٦٠٨، وأحمد ١/ ٣٦٨.

(٢) سنن الدَّارميِّ ١/ ٥٣.

(٣) سنن الدَّارميِّ ١/ ٥٤.

في الدِّين». رواه النَّسائيُّ ، وابن ماجه ، وأحمد ، وابن خزيمة ، وابن حبَّان ، والحاكم[1].

* وأخرج الدَّارميُّ بسنده إلى عثمان بن حاضرٍ الأزديِّ ؛ قال:

دخلت على ابن عباسٍ ، فقلت: أوصني.

فقال: نعم. عليك بتقوىٰ الله ، والاستقامة. اتَّبعْ ، ولا تَبْتَدِعْ[2].

* وقد عقد الإمام البخاريُّ باباً في صحيحه[3] عنوانه: [باب ما يكره من التَّعمُّق ، والتَّنازع في العلم ، والغُلوِّ في الدِّين ، والبدع؛ لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١] وأورد البخاريُّ في هذا الباب حديث أبي هريرة ، وفيه قصَّة الَّذين أرادوا مواصلة الصِّيام ؛ استكثاراً للثَّواب ، فنهاهم ﷺ ، فلم ينتهوا ، فأدَّبهم بطريقةٍ تربويَّةٍ رائعةٍ. وإليكم الحديث:

عن أبي هريرة ؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تواصلوا!» قالوا: إنَّك تواصل.

قال: «إنِّي لستُ مثلَكم. إنِّي أبيتُ يطعمني ربِّي ، ويسقيني». فلم ينتهوا عن الوصال. قال: فواصَلَ بهم النَّبيُّ ﷺ يومين ، أو ليلتين ، ثمَّ رأوا الهلال. فقال النَّبيُّ ﷺ: «لو تأخَّر الهلال ؛ لزدتكم» كالمُنكِّل بهم[4].

قال ابن حجرٍ: [وقع في حديث أنسٍ الماضي في كتاب التَّمنِّي: «ولو مُدَّ لي في الشَّهر ؛ لواصلتُ وصالاً يَدَعُ المتعمِّقون تَعَمُّقَهُم»[5].

---

(١) انظر النَّسائي ٥/ ٢٦٨ ، وابن ماجه برقم ٣٠٢٩ ، والمسند ١/ ٢١٥ و٣٤٧ ، وابن خزيمة ٤/ ٢٧٤ برقم ٢٨٦٧ ، والإحسان في تقريب صحيح ابن حبَّان ٩/ ١٨٣ والمستدرك ١/ ٤٦٦ ، وفتح الباري ١٣/ ٢٧٨.

(٢) سنن الدَّارميِّ ١/ ٥٣.

(٣) صحيح البخاريِّ ٩/ ٧٩.

(٤) البخاريُّ برقم ٧٢٩٩ ، وكان أورده في كتاب الصِّيام برقم ١٩٦٥.

(٥) فتح الباري ١٣/ ٢٧٨.

وأورد البخاريُّ في هذا الباب أيضاً حديث عائشة. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: صنع النَّبيُّ ﷺ شيئاً ترخَّص فيه، وتنزَّه عنه قومٌ، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فحمِد الله، ثمَّ قال: «ما بالُ أقوام يتنزَّهون عن الشَّيء أصنعُه؟ فوالله! إنِّي أعلمُهم بالله، وأشدُّهم له خشيةً»[1] وأورد البخاريُّ هذا الحديث أيضاً في كتاب الأدب من صحيحه، باب من لم يواجه النَّاس بالعتاب[2]، وروىٰ مسلمٌ هذا الحديث أيضاً[3]، وفيه: قالت: صنع رسولُ الله ﷺ أمراً فترخَّص فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه، فكأنَّهم كرهوه، وتنزَّهوا عنه، فبلغه ذلك، فقام خطيباً، فقال:

«ما بالُ رجالٍ بلغَهم عنِّي أمرٌ ترخَّصت فيه، فكرهوه، وتنزَّهوا عنه؟ فوالله! لأنا أعلمُهم بالله، وأشدُّهم له خشيةً». وفي روايةٍ لمسلمٍ أيضاً: فبلغ ذلك النَّبيَّ ﷺ، فغضب حتَّى بان الغضب في وجهه.

* وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الدِّين يُسْرٌ، ولن يشادَّ هذا الدِّينَ أحدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة، والرَّوحة، وشيءٍ من الدُّلجة» رواه البخاريُّ، وأحمد[4].

* وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

«سدِّدوا، وقاربوا، واغدُوا، وروحوا، وشيءٌ من الدُّلْجة، والقَصْدَ القَصْدَ؛ تبلغوا»[5].

هذه الأحاديث الصَّحيحة؛ الَّتي رواها عن رسول الله ﷺ صحابةٌ أجلَّاء، هم ابن مسعودٍ، وابن عبَّاسٍ، وعائشة، وأبو هريرة، وأنس... وهذان

---

(١) البخاريُّ برقم ٧٣٠١.
(٢) صحيح البخاريِّ ٨/ ٢٢ برقم٦١٠١.
(٣) مسلمٌ برقم ٢٣٥٦.
(٤) البخاريُّ برقم ٣٩ والمسند ٥/ ٦٩.
(٥) البخاريُّ برقم ٦٤٦٣.

الأثران المرويَّان عن ابن مسعودٍ ، وابن عبَّاسٍ كلُّها تقرِّر أمراً مهمَّاً في الإسلام ، وهو :

أنَّ التَّشَدُّد في الدِّين ، والغلوّ فيه أمرٌ مذمومٌ ، مردودٌ على قائله .

وقد دلَّت آيات الكتاب الكريم على ذلك أيضاً . وأيَّد هذا التَّاريخُ الثابتُ المنقول إلينا عمَّن كان قبلنا من الأمم السَّابقة ومن أمَّتنا . ورائعٌ صنيع الإمام البخاريِّ ؛ الَّذي جمع التَّعمُّق ، والتَّنازع في العلم ، والغلوَّ في الدِّين ، والبدع في إطارٍ واحدٍ . . . إنَّ ذلك يدلُّ على عظيم فقهه ، رحمه الله! فَبَيْن هذه الأمور رابطٌ قويٌّ ، وصلةٌ وثيقة .

ولنشرح الكلمات الَّتي تحتاج إلى شرحٍ في هذه الأحاديث :

قال النَّوويُّ في «شرح مسلمٍ» :

[هلك المتنطِّعون : أي : المتعمِّقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم ، وأفعالهم][1] .

وجاء في «لسان العرب»[2] :

[التنطُّع في الكلام : التَّعمُّق فيه . وفي الحديث : هلك المُتنطِّعون . هم المُتعمِّقون في الكلام ؛ الَّذين يتكلَّمون بأقصىٰ حلوقهم تكبُّراً ، كما قال النَّبيُّ ﷺ : «إنَّ أبغضكم إليَّ الثَّرثارون المُتفيهقُون»[3] .

قال ابن الأثير : هو مأخوذٌ من النِّطع . وهو الغار الأعلىٰ في الفم . . . ثمَّ استُعمل في كلِّ تعمُّقٍ قولاً ، وفعلاً . ومنه حديث ابن مسعود : إيَّاكم والتَّنطُّع ، والاختلاف ، فإنَّما هو كقول أحدكم : (هلمَّ ، وتعال) أراد النَّهي عن الملاحاة

---

(١) شرح مسلمٍ ١٦/ ٢٢٠ .

(٢) لسان العرب ٨/ ٣٥٧ .

(٣) مسند أحمد ٤/ ١٩٣ و١٩٤ ، والتِّرمذيُّ ٣/ ١٥٠ ، وموارد الظمآن ٤٧٤ ، ومكارم الأخلاق ص ٥ .

في القراءات المُختلفة ، وأنَّ مرجعها كلَّها إلى وجهٍ واحدٍ من الصَّواب ، كما أنَّ (هلم) بمعنى : (تعال)].

وجاء في «الفائق»[1] :

[. . . هو التعمُّق ، والغلوُّ. وأصله: التقعُّر في الكلام من النِّطع ، وهو الغار الأعلىٰ ، ثم استعمل في كلِّ تعمُّقٍ. . . ومنه الحديث: «هلك المتنطِّعون» أي: الغالون].

وقال ابن حجر :

[الغلوُّ: هو المبالغة في الشَّيء ، والتَّشديد فيه بتجاوز الحدِّ. يقال: غلا في الشَّيء ، يغلو ، غلوّاً ، وغلا السِّعر ، يغلو ، غلاءً إذا جاوز العادة. والسَّهم يغلو غَلْواً (بفتح ثمَّ سكون): إذا بلغ غاية ما يرمىٰ][2].

ولنشرع بشرح الأحاديث. . . ثمَّ نتكلم عن الموضوع :

عن ابن عباس ، قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة ، وهو على راحلته: «هات القُطْ لي» فلقطت له حصياتٍ هن حصى الخَذْف ، فلمَّا وضعتهنَّ في يده ؛ قال:

«بأمثال هؤلاء ، وإيَّاكم والغلوَّ في الدِّين ، فإنَّما أهلك مَنْ كان قبلكم الغُلوُّ في الدِّين».

حديث ابن عباس ؛ الَّذي رويناه جاء في سياق قصَّة حجِّه ﷺ. وورود هذا المورد منحه حيويَّةً ، وجاذبيَّةً ، وقد تجلَّى فيه الرَّبط بين الأوامر ، وتطبيقاتها العمليَّة.

ففي هذا الحديث تعليمٌ عمليٌّ من النَّبيِّ ﷺ لأصحابه ، وهذا شأنه في أكثر تعليمه ، وتوجيهه ، وتبليغه ، وتربيته ﷺ ، كقوله: «صلُّوا ، كما رأيتموني أصلِّي» و: «خذوا عنِّي مناسككم». . . وهذا ما نجده في هذه القصَّة ، فلمَّا

---

(١) الفائق ٣/ ٤٤٤.

(٢) الفتح ١٣/ ٢٧٨.

جاءه ابن عباسٍ بحصيات مناسباتٍ يصفهنَّ بأنَّهنَّ حصىٰ الخَذْف ، والخَذْفُ : رميُ الحصىٰ بالأصابع ، قال : «بأمثال هؤلاء» . ثمَّ انتقل ﷺ إلىٰ ضرورة البُعد عن الغُلُوِّ ، والزِّيادة ، وفي ذلك استغلال المناسبات لتقرير الحقِّ ؛ الَّذي ينفع النَّاس ، فعندما التزم ابن عباسٍ بالإتيان بالحصى على الوجه المطلوب ؛ قرَّر الرَّسول ﷺ : أنَّ البعد عن الغُلوِّ ينبغي أن يكون في كلِّ أمرٍ من أمور الدِّين .

وفي هذا الحديث أيضاً الثَّناء مِنْ وليِّ الأمر ، أو الرَّجل الكبير على مَنْ يُحْسِنُ القيام بالمهمَّة من الأتباع ، والأبناء .

وفيه أيضاً الاستفادة من التَّاريخ ، وأخذ الموعظة منه ؛ لأنَّ السَّعيد من اتَّعظ بغيره ، فقد أهلك الأمم قبلنا غُلُوُّها في الدِّين .

وفيه : أنَّ للمرء أن يستعين بمن يكون معه من الأولاد ، ففي ذلك تعليمٌ له ، وتدريبٌ ، فابن عباسٍ كان صغير السِّنِّ ، وكان مرافقاً للنَّبيِّ ، فأمره ﷺ أن يلتقط له الحصىٰ ، وهذا قد أدخل عليه السُّرور ، وأشعره بأنَّه أهلٌ للقيام بالمهمَّات ، وقد أثنىٰ الرَّسول ﷺ على عمله .

وفيه : أنَّ الغُلُوَّ في الدِّين مذمومٌ ، وهو مثل النَّقص منه ، فلا يستطيع شيطانٌ من شياطين الإنس ، والجنِّ أن يلبِّسَ علينا ديننا ، فيزيِّنَ لنا الغُلُوَّ في الدِّين بأيِّ حجَّةٍ من الحجج .

وقد كان ابن عباسٍ يوصي مَنْ يستوصيه بأن يتجنَّب البدع ، والغُلُوَّ ، فقد دخل عليه عثمان بن حاضرٍ الأزديُّ ، وسأله الوصيَّة ، فقال له ابن عباس : عليك بتقوىٰ الله ، والاستقامة . اتَّبع ، ولا تَبْتَدِعْ .

عن عبد الله بن مسعودٍ ، قال : قال رسول الله ﷺ : «هلك المتنطِّعون» . قالها ثلاثاً .

في هذا الحديث على إيجازه نُكَتٌ بيانيَّة ، وفوائد شرعيَّةٌ ، وقواعد تربويَّةٌ متعدِّدة :

* في هذا الحديث التَّكرار المؤكَّد ، وهو ظاهرةٌ بيانيَّةٌ ، له دواع تدعو إليه ، ويحقِّق أغراضاً مهمَّةً ، وفي كتاب الله ، والحديث الشريف أمثلةٌ رائعةٌ على التَّكرار

الحلو ؛ الَّذي يؤدِّي مهمَّةً بلاغيَّـةً محدَّدةً ، ومن أهم الأغراض الَّتي يحقِّقها : التَّأكيد ، والتَّوضيح ، ولفت أنظار السَّامعين إلى أهمِّيَّة الموضوع المبحوث .

* وفي هذا الحديث الموسيقا المنبعثةُ من كلمة (المُتنطِّعون) ، وهي توحي للسَّامع بصفةٍ غير محمودةٍ ، يصل السَّامع إلى إدراكها من وقع هذه الكلمة على أذنه . . . إنَّها توحي بأنَّ من كان متَّصفاً بها لا خير فيه . . هذا هو الانطباع الَّذي تُحِسُّ به النَّفس عندما يُلقىٰ عليها هذا الحديث .

* وفي هذا الحديث الإيجاز ؛ الَّذي بلغ قمَّة الجودة ، والإبداع .

* وفي هذا الحديث التَّعبير بالماضي عن أمرٍ سيكون في المستقبل للدَّلالة على تحقُّقه فقال : «هلك المُتنطِّعون» . . . إنَّها صورةٌ فيها ترهيبٌ من التَّنَطُّع . . . إنَّ المتنطِّعين هالكون . . وهذا تصوير صادقٌ للواقع . . . إنَّ المُتنطِّعين هالكون حقَّاً ؛ لأنَّ التنطُّع ابتداعٌ ، والمبتدع في الدِّين يؤْثِر في أحيانٍ كثيرةٍ هواه على ما شرع الله ، فهو يزيد على ما أمر الله ، فيَضلَّ ، ويُضلُّ .

إنَّ هؤلاء المغالين المُتعمِّقين في الكلام ، والأفعال هالكون ، وهلاكُهم أمرٌ محقَّقٌ لا شكَّ فيه ، وقد رأينا النَّصارىٰ كيف انتهىٰ بهم تنطُّعهم ، وغلوُّهم في حبِّ المسيح عليه السَّلام إلى الشِّرك ، وكذلك رأينا بعض الفرق الضَّالَّة ؛ الَّتي خرجت على المسلمين كيف ضلَّت عندما أحبُّوا رجلاً من الصَّحابة ، فرفعوه فوق رتبة البشر ، فضلُّوا ، وأضلُّوا .

وقريبٌ منهم حال بعض الجهلة الَّذين يرفعون نبيَّنا ﷺ فوق درجة النُّبوَّة بدعوى محبَّته ﷺ إلى درجةٍ لا يرضاها :

روىٰ البخاريُّ ، وأحمد عن عمر رضي الله عنه : أنَّ رسول الله ﷺ قال : «لا تُطروني كما أطرت النَّصارى عيسى ابن مريم ، فإنَّما أنا عبدُ الله ، ورسولُه»[1] .

إنَّ ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ وعىٰ هذا المعنىٰ ؛ الَّذي سمعه من

---

(١) البخاري برقم ٦٨٣٠ والمسند ١/ ٢٣ .

رسول الله ﷺ فكان ينهى النَّاس عن التَّنطُّع ، والغلوِّ ، ويوصيهم بالاعتدال ، والاتِّباع . . كان يقول: تعلَّموا العلم قبل أن يُقبض ، وقَبْضُه أن يذهب أهلُه . ألا وإيَّاكم والتَّنَطُّعَ ، والتَّعمُّقَ ، والبدع ، وعليكم بالعتيق .

إنَّه يدعو النَّاس إلى أن يغتنموا وجود العلماء ، فيتعلَّموا . . . إنَّ العلماء نعمةٌ عظمىٰ من الله ، فلنُقبِل على حلقاتِهم ، ولنتردَّد على مجالسهم ، ولْنَسْألهم . . . إنَّهم ذاهبون ، وهذا المعنى جاء في حديثٍ مرفوعٍ إلى النَّبيِّ ﷺ يبيِّن فيه رسولُ الله ﷺ: أنَّ الله لا ينتزع العلم من صدور العلماء ، بل يقبض العلماء ، فيذهبُ بذهابهم العلمُ[1] .

إنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء ، وهم بركة الدُّنيا ، ووجودُهم نعمةٌ جليلةٌ ، يدلُّون النَّاس على طريق الجنَّة ، ويفقِّهونهم في دين الله ، وقد يسَّر الله لنا في هذا العصر وسائلَ الاتِّصال بهم . . . فالهواتف مبذولةٌ ميسورةٌ في البيوت ، والطُّرقات . . . ألا فتعلَّموا العلم يا عباد الله! والعلمُ خزائنُ ، ومفاتيحها السُّؤال .

ثمَّ حذَّرهم ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ بعد ذلك من التَّنطُّع ؛ الَّذي يقع فيه بعض النَّاس ، ولا سيما بعض الشَّباب ؛ الَّذين بدؤوا في طلب العلم ، ويحكي لنا ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ موقف رسول الله ﷺ ، وأبي بكر ، وعمر من المتنطِّعين ، فيقسم ، ويقول:

والله الذي لا إله إلا هو! ما رأيت أحداً أشدَّ على المُتنطِّعين من رسول الله ﷺ .

وما رأيت أحداً كان أشدَّ عليهم من أبي بكر!

وإنِّي لأرى عمر كان أشدَّ خوفاً عليهم ، أو لَهُمْ .

---

(١) روى البخاريُّ ، ومسلمٌ عن عبد الله بن عمرٍو ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتَّى إذا لم يبق عالماً اتَّخذ النَّاس رؤوساً جُهَّالاً ، فسُئِلوا ، فأفتوا بغير علمٍ فضلُّوا ، وأضلوا» [البخاريُّ (الفتح ١/ ١٩٤ برقم ١٠٠) ومسلمٌ برقم (٢٦٧٣)].

ويبدو: أنَّ كلمة ابن مسعودٍ كانت في أيام خلافة عمر.

ولا غَرْوَ أن يكون موقف هؤلاء الصَّحب الكرام هذا الموقف لأنَّهم ـ رضوان الله عليهم ـ تمثَّلوا المعانيَ الإسلاميَّة؛ الَّتي تلقَّوها من المُعلِّم الأعظم ﷺ، ثمَّ انطلقوا يقرِّرونها على النَّاس، يواجهونهم بها، لا يخافون في الله لومة لائم.

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تُواصِلوا». قالوا: إنَّك تواصل.

قال: «إنِّي لستُ مثلَكم. إنِّي أبيتُ يطعمني ربِّي، ويسقيني». فلم ينتهوا عن الوصال.

قال: فواصل بهم النَّبيُّ ﷺ يومين، أو ليلتين، ثمَّ رأوا الهلال، فقال النَّبيُّ ﷺ: «لو تأخر الهلال؛ لزدتكم» كالمُنكِّل بهم. وفي روايةٍ: «ولو مُدَّ لي في الشَّهر؛ لواصلتُ وصالاً يَدَعُ المُتَعَمِّقون تعمُّقَهم». رواه البخاريُّ.

التعمُّق، والتَّنطُّع، والغُلُّو كلماتٌ مقاربة الدَّلالة لمعنىً مذموم شرعاً. وحديث أبي هريرة يحكي لنا قصَّة نفرٍ من هؤلاء المتعمِّقين، وتأديب النَّبيِّ ﷺ لهم.

الوصال في الصيام: أن يواصل الصَّائم الامتناع عن الطَّعام، والشَّراب، وسائر المفطرات، ويصلُ ليلَه بنهارِه. وقالوا في تعريفه: [هو التَّرك في ليالي الصِّيام لما يفطر بالنَّهار بالقصد. فيخرُج مَنْ أمسك اتِّفاقاً...][1] وهذا مِنْ خصوصيَّات النَّبيِّ ﷺ، فقد كان يواصل... فأراد بعض الصَّحابة أن يقتدي به ﷺ رغبةً في الثواب، فنهاهم قائلاً: «لا تواصلوا» فقالوا: يا رسول الله! إنَّك تواصل. فبيّن لهم: أنَّ ذلك خصوصيَّةٌ له، ليس لهم أن يقلِّدوه فيها؛ لأنَّه ليس مثلَهم، وذكر لهم: أنَّ الله يطعمه، ويسقيه. ونهيُه إيَّاهم عن الوصال يقتضي بأن يُفطروا عند غروب الشَّمس، ويمارسوا ما أحلَّ الله لهم من المُفطرات إلى الفجر؛ لأنَّهم لا يُطيقون ما يطيق، ولا يكون لهم من العناية الرَّبَّانيَّة ما يكون له.

---

(١) فتح الباري ٤/ ٢٠٢.

ولكنَّهم ـ رغبةً في الاستزادة من الخير ، والاستكثار من الطَّاعة ـ واصلوا. وهذا خطأٌ منهم عن اجتهادٍ ، وتأويل ، فأمْرُهُ ﷺ ، ونهيُه واجبُ الاتِّباع ، والامتثال. فلمَّا علم ﷺ بإصرارهم على الوصال ؛ عمَد إلى تأديبهم بطريقةٍ تربويَّةٍ رائعةٍ ، وهي أن يأمرهم بالمواصلة ، فواصلوا يومين ، ولكنَّ ذلك كان في آخر شهر رمضان ، ورأىٰ النَّاسُ هلال شوَّال ، وقد تمنَّى ﷺ أنْ لو تأخَّر الهلالُ حتَّى يواصل بهم وصالاً يجعل هؤلاء المُتَعمِّقين يَدَعُون تعمُّقهم ، وذلك كالتَّنكيل بهم. وهذه طريقةٌ تربويةٌ رشيدةٌ ، تقنع المخطئ بفساد رأيه عندما يعضُّه الجوع ، ويبرح به العطش ، ويحلُّ به الإعياء ، ويقول: يا ليتني قبلتُ الحكم الشَّرعيَّ في أول مرَّة لأنه أرحم بي! يا ليتني لم أغلُ ، ولم أتعمَّق!

إنَّ الزيادة على ما رسم الشَّرع غلوٌّ ، وتنطُّعٌ ، وابتداعٌ ، ويقول ﷺ: «مَنْ أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه ؛ فهو ردٌّ»[1] . . . إنَّه سبحانه أعلم بما يصلُح لعباده. . . فالزِّيادة مردودةٌ مرفوضةٌ ، والإسلام دينٌ ليس فيه حرجٌ على الخَلْق ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨].

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: صنع رسولُ الله ﷺ أمراً ، فترخَّص فيه ، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه ، فكأنَّهم كرهوه ، وتنزَّهوا عنه. فبلغه ذلك ، فغضب ؛ حتَّى بان الغضب في وجهه ، فقام خطيباً ، فحمِد الله ، ثمَّ قال:

«ما بال رجالٍ بلغهم عنِّي أمرٌ ترخَّصت فيه ، فكرهوه ، وتنزَّهوا عنه؟ فوالله! لأنا أعلمهم بالله ، وأشدُّهم له خشيةً».

هذا الحديث نصٌّ صريحٌ رائعٌ في موضوعنا ، فالعلم بالله ، وخشيته لا تقتضي الغُلُوَّ والتَّنطُّع ، بل إنَّ التَّنزُّه عن أمرٍ رخَّص فيه الشَّرع كان سبباً لغضب رسول الله ﷺ ، وبيانِه حقيقة الأمر.

قال ابن حجر: [والمراد منه هنا: أنَّ الخير في الاتِّباع ، سواءٌ كان ذلك في العزيمة ، أو الرُّخصة ، وأنَّ استعمال الرُّخصة بقصد الاتِّباع في المحلِّ الذي

---

(١) البخاريُّ برقم ٢٦٩٧ ، ومسلمٌ برقم ١٧١٨ ، وأحمد ٦/ ٧٣ ، وأبو داود برقم ٤٦٠٦.

وردت أولىٰ من استعمال العزيمة ، بل ربَّما كان استعمال العزيمة مرجوحاً ، كما في إتمام الصَّلاة في السَّفر ، وربما كان مذموماً ، إذا كان رغبة عن السُّنَّة ، كترك المسح على الخفيَّن. وأومأ ابن بطَّالٍ إلى أنَّ الَّذي تنزَّهوا عنه القُبْلة للصَّائم ، وقال غيره: لعلَّه الفطر في السَّفر.

ونقل ابن التِّين عن الدَّاوديِّ : أنَّ التَّنزُّه عمَّا ترخَّص فيه النَّبيُّ ﷺ من أعظم الذُّنوب؛ لأنَّه يرى نفسه أتقىٰ لله مِنْ رسوله ، وهذا إلحادٌ.

قلت [والقائل ابن حجر]: لا شكَّ في إلحاد مَنِ اعتقد ذلك ، ولكنَّ الَّذي اعتلَّ به من أشير إليهم في الحديث: أنَّه غُفِر له ما تقدَّم ، وما تأخر ، فإذا ترخَّص في شيءٍ لم يكن مثلَ غيره ممَّن لم يغفر له ذلك. فيحتاج الَّذي لم يُغفر له إلىٰ الأخذ بالعزيمة ، والشدَّة ؛ لينجو ، فأعلمهم النَّبيُّ ﷺ: أنَّه وإن كان غفَر الله له ؛ لكنَّه مع ذلك أخشىٰ النَّاس لله ، وأتقاهم ، فمهما فعله ﷺ من عزيمةٍ ، ورخصةٍ ؛ فهو منه في غاية التَّقوى ، والخشية ، لم يحمله التفضُّل بالمغفرة على ترك الجدِّ في العمل قياماً بالشُّكر ، ومهما ترخَّص فيه ؛ فإنما هو للإعانة على العزيمة ؛ لعملها بنشاطٍ][1].

* ولو نظرنا في هذا الحديث ؛ لوجدنا كأنَّه يُصَحِّحُ للمغالين في العبادة ، والمتشدِّدين ، ويقول لهم: ليس التشدُّد ، ونَبْذ الرُّخص أكثر خشيةً وتقوى ، ولا يدلُّ على مزيد علمٍ ، فرسول الله الَّذي هو أعلمُ الخلق بالله ، وأشدُّهم خشيةً له يأخذ بالرُّخص.

* إنَّ الله تبارك وتعالى غنيٌّ عن أن يُعذِّبَ النَّاسُ أنفسَهم ، ولم يجعل عليهم حرجاً في دينهم ، ولم يكلِّفهم شيئاً فوق وُسْعِهم.

* وفي هذا الحديث دليلٌ على كظم غيظ النَّبيِّ ﷺ ، وعلى حلمه ، وأسلوبه الرَّقيق اللَّطيف في معالجة الأغلاط ، فهو لم يُسمِّ هؤلاء المُخطئين ، بل قال على عادته: (ما بال أقوامٍ؟) أو (ما بالُ رجالٍ؟). وهذا درسٌ بليغٌ

(١) الفتح ١٣/ ٢٧٩.

لبعض الدُّعاة الَّذين يُواجهون النَّاس بما لا يحبُّون ، فعليهم أن يصبروا وأن تتَّسع صدورهم لأخطاء الَّذين يدعونهم . . . إنَّ معالجة الخطأ بهذا الأسلوب أدعى للوصول إلى الموقف السَّليم .

* هذا وقد يدخل الشَّيطان ، فيوسوس للإنسان بأن يقف مثل هذا الموقف ؛ ليبدو أمام الناس أكثر تقوى ، وأشدَّ خشيةً . ولكن ليحذر المسلم من ذلك ، وليعص الشَّيطان ، وليطع الرَّحمٰن ، وَلْيَتَّهم نفسه ، فإنَّ النَّفس لأمارةٌ بالسُّوء . وليتَّقِ الله ربَّه ؛ الَّذي يَعْلَمُ خائنة الأعين ، وما تخفي الصُّدور .

عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إنَّ الدِّين يسرٌ ، ولن يشادَّ هذا الدِّين أحدٌ إلا غلبه ، فسدِّدُوا ، وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة ، والرَّوحة ، وشيءٍ من الدُّلْجَة» . وفي روايةٍ : «القصدَ تبلغوا» رواه البخاريُّ .

المشادَّة : المغالبة ، يقال : شادَّه ، يشادُّه مشادَّةً : إذا قاواه .

لا بدَّ لنا من الوقوف قليلاً عند هذه الصُّورة الجميلة الَّتي نقف عليها في هذا الحديث . . . إنَّها معركةٌ تقوم بين الدِّين اليُسْر ، وبين متنطِّع متشدِّدٍ ، يحاول أن يشدَّ الدِّين إلى التَّعسير ، والتَّضييق على الخَلْقِ ، ولكنَّ هذه المشادَّة تنتهي بانتصار الدِّين ، وغلب المتنطِّع . . . إنَّ تصوَّر هذه المعركة يبرز لنا يُسْرَ هذا الدِّين ؛ الَّذي يغلب كلَّ محاولةٍ لحَرْفِه عن مسارِه .

وقوله : «سدِّدوا» أي : الزموا السَّداد . وهو الصَّواب من غير إفراطٍ ، ولا تفريطٍ . قال أهل اللغة : السَّداد : التوسُّط في العمل[1] .

وقوله : «قاربوا» أي : إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه .

وقوله : «أبشروا» أي : بالثَّواب على العمل الدَّائم ؛ وإن قلَّ . قال ابن حجر : [والمراد تبشير مَنْ عجز عن العمل بالأكمل بأنَّ العجز إذا لم يكن من صنيعه ؛ لا يستلزم نقص أجره ، وأبهم المبشَّر به تعظيماً له ، وتفخيماً][1] .

ولا بُـدَّ كذلك أن نقف وقفةً أخرىٰ أمام هذه الصُّورة الرَّائعة الَّتي تُجَسِّد

---

(١) فتح الباري ١/ ٩٥ .

معنىً يريد الرَّسول ﷺ تقريره ، فعبَّر عنه بصورةٍ منتزعةٍ من واقعهم ، وحياتهم العمليَّة ، . . . وذلك أدعى لتذوُّقها ، واستيعاب معناها : إنَّ المسافر إذا سافر باللَّيل ، والنَّهار جميعاً ، ولم يسترح ، ولم ينم ، ولم يُرِحْ دابَّته ؛ أهلك نفسه ، ومركوبه ، وعجَز ، وانقطع ، وبقي في بعض الطَّريق ، لا يتحوَّل عن المكان الَّذي انتهى إليه . . أما إذا تحرَّى السَّير في الأوقات ؛ الَّتي تساعده على قطع الطَّريق ، واستراح في الأوقات الأخرىٰ ؛ وصل إلى بُغيته سالماً ، وسلِمت له دابَّتهُ التي يركبها .

فلتستعن أيُّها المسافر بالغَدْوةِ ، وهي ما بين صلاة الفجر وطلوع الشَّمس ، وهذا الوقت المبكِّر وقتٌ مبارك ، يستطيع المرء أن يُنْجِز فيه أموراً كثيرةً ، والسَّير فيه جميلٌ ، فليس هناك حرٌّ يزعج ، ولا شعاعُ شمسٍ يضايق . . . الطَّريق مكشوفٌ بالضَّوء الصَّباحيِّ ، والمرء نفسه يكون نشيطاً قادراً على قطع هذا الطَّريق ، والتنبُّه لكلِّ ما يمكن أن يتعرَّض له المسافر .

وهناك وقت آخر ، وهو الرَّوحة ، وهو السَّير بعد الزَّوال ، حيث يكون المرء ودابَّتُه قد أخذا حظَّهما من الرَّاحة ، وتكون حدَّة الشَّمس قد خفَّت قليلاً .

ووقتٌ ثالثٌ يوصي الرَّسول ﷺ باستغلاله ، والإفادة منه ، وهو وقت الدُّلجة ، وهو السَّير آخر اللَّيل ، وهذا السير يحمد المرء عاقبته ؛ إذا طلع الصَّباح ، ومن هنا قالت العرب : عند الصَّباح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرَىٰ .

قال ابن حجر : [وهذه الأوقات أطيب أوقات المسافر ، وكأنَّه ﷺ خاطب مسافراً إلى مقصدٍ ، فنبَّهه على أوقات نشاطه ، لأنَّ المسافر إذا سافر اللَّيل والنَّهار جميعاً ؛ عجَز وانقطع ، وإذا تحرَّى السَّير في هذه الأوقات المُنشِّطة ؛ أمكنته المداومة من غير مشقَّة . وحسن هذه الاستعارة : أنَّ الدنيا في الحقيقة دارُ نقلةٍ إلى الآخرة ، وأنَّ هذه الأوقات بخصوصها أروح ما يكون فيها البدن للعبادة][1] .

---

(١) فتح الباري ١/ ٩٥ .

والرِّواية الأخرى: «القَصْدَ القَصْدَ تبلغوا»[1] تؤدِّي المعنى نفسه؛ الَّذي في الرِّواية السَّابقة، فهو يقول: عليك بالاقتصاد... لا تسرع، ولا تبطئ.. فإنَّك إن فعلت ذلك؛ بلغت مُرادك، ووصلت إلى بُغيتك. والقصد: الأخذ بالأمر الأوسط... إنَّ العمل بالتلطُّف، والتَّدريج، والاعتدال يمكن أن يستمرَّ، ويدومَ، ولا ينقطع.

يُسْرُ هذا الدِّين حقيقةٌ ملموسةٌ، لا يُنكرها إلا مُكابرٌ، نطقت بذلك نصوص الكتاب والسُّنَّة، ودلَّ على ذلك النَّظر في أحكام الشَّريعة كلِّها. يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ويقول سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] ويقول جلَّ جلاله: ﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ﴾ [الحج: ٧٨].

قال ابن المنير: [في هذا الحديث عَلَمٌ من أعلام النُّبوة، قد رأينا ورأىٰ النَّاس قبلنا أنَّ كلَّ متنطِّعٍ في الدِّين ينقطع، وليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة، فإنَّه من الأمور المحمودة، بل منع الإفراط المؤدِّي إلى المَلال، أو المُبالغة في التَّطوُّع المُفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلِّي اللَّيل كلَّه، ويغالب النَّوم إلى أن غلبته عيناه في آخر اللَّيل، فنام عن صلاة الصُّبح في الجماعة، إلى أن خرج الوقت المُختار أو إلى أن طلعت الشَّمس، فخرج وقت الفريضة][2].

إنَّ طبيعة هذا الدِّين هي اليسر، ولم يكلِّف نفساً إلا وُسْعَها. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] وقال في آية الرَّضاعة: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣] وقال في سورة الأعراف: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) البخاريُّ ١١/ ٦٤٦٣.

(٢) فتح الباري ١/ ٩٤.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢] وهذا المعنى كان متجسِّداً في سيرة الرَّسول الأعظم ﷺ فما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيسرَهُما ، ما لم يكن إثماً.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً ، فإن كان إثماً ؛ كان أبعد النَّاس منه ، وما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنتهك حرمة الله عزَّ وجلَّ. متَّفقٌ عليه ، وهذا لفظ مسلمٍ ، ورواه أحمد ، وأبو داود ، ومالكٌ في الموطأ[١].

ولقد ثبت في الصَّحيح: أنَّه ﷺ وقف في حجَّة الوداع بمنى يسألونه ، فجاءه رجلٌ ، فقال: يا رسول الله! إنِّي لم أشعرْ ، فحلقت قبل أن أذبح. فقال ﷺ: «اذبح ، ولا حرج» وجاء رجلٌ آخر فقال: يا رسول الله! لم أشعرْ فنَحرت قبل أن أرميَ. قال: «ارمِ ، ولا حرج» قال: فما سئل يومئذٍ عن شيءٍ قدِّم ، أو أخِّر إلا قال: «اصنع ، ولا حرج» رواه البخاريُّ ، ومسلمٌ ، والتِّرمذيُّ ، والنَّسائيُّ ، وابن ماجه ، وأبو داود ، وهذه روايته[٢].

ولقد زوَّج النَّبيَّ ذلك الرَّجل الذي لم يجد عليه إلا إزاره ، ولم يقدر على خاتمٍ من حديدٍ ، وجعل صداق الزَّوجة أن يعلِّمها ما معه من القرآن ، والحديث في صحيح البخاريِّ ، وصحيح مسلمٍ ، والتِّرمذيِّ[٣].

ومن قواعد هذا الدِّين ؛الَّتي تَلْتَمِسُ فيها اليسر بأجلىٰ مظاهره قاعدة: «الضَّرورات تبيح المحظورات» وأنَّ الواجبات تسقط عن المكلَّف إن لم يكن قادراً على أدائها. فدائرة الشَّرع إذا ضاقت على إنسانٍ ؛ اتَّسعت.

فكلُّ من أراد أن يُخرِج هذا الدِّين عن وصف اليُسْرِ غُلب ، ورُدَّ.

---

(١) البخاريُّ ٦/ ٥٦٦ برقم ٣٥٦٠ ، ومسلمٌ ٢٣٢٧ ، وأبو داود رقم ٤٧٨٥ ، والموطأ ٢/ ٩٠٢ ـ ٩٠٣ والمسند ٦/ ١١٤ و١١٦.

(٢) البخاريُّ ٣/ ١٧٣٦ و١٧٣٧ ، ومسلمٌ ٢/ رقم ١٣٠٦ ، والتِّرمذيُّ ٣/ برقم ٩١٦ ، والنَّسائيُّ في الكبرىٰ ٢/ ٤٤٦ ـ ٤٤٧ ، وابن ماجه ٢/ برقم ٣٠٥١ ، وأبو داود ٢/ برقم ٢٠١٤.

(٣) البخاريُّ برقم ٥١٣٥ ، ومسلمٌ برقم ١٤٢٥ ، والترمذيُّ ٢/ ١٨٣ برقم ١١١٤.

وممَّا يدلُّ على سماحة هذه الشَّريعة ، ورفع الحرج عن متَّبعيها ، وعلى أنَّ صفة التَّيسير على الخلق صفةٌ أصيلةٌ فيها حديث جابر بن عبد الله ؛ الَّذي ذكر فيه : أنَّ رسول الله ﷺ خرج عام الفتح إلى مكَّة في رمضان ، فصام ؛ حتَّى بلغ كُراع الغميم (وهو مكان) فصام النَّاس. فقيل له: إنَّ النَّاس قد شقَّ عليهم الصِّيام ، وإنما ينظرون فيما فعلت. فدعا بقدحٍ من ماءٍ بعد العصر ، فرفعه ؛ حتَّى نظر النَّاس إليه ، ثمَّ شرب ، فقيل له بعد ذلك : إنَّ بعض النَّاس قد صام ، فقال ﷺ: «أولئك العُصاة! أولئك العصاة!». رواه مسلمٌ[1].

وحديث عائشة ، وأبي هريرة ـ رضي الله عنهما ـ وفيه: أنَّ رجلاً أتىٰ إلى رسول الله ﷺ في المسجد في رمضان ، فقال: يا رسول الله! احترقت! احترقت! فسأله رسولُ الله ﷺ: «ما شأنُه»؟

فقال: أصبت أهلي. قال: تصدَّق. قال: والله يا نبيَّ الله ما لي شيءٌ ، وما أقدِر عليه.

قال: «اجلس». فجلس ، فبينا هو على ذلك أقبل رجلٌ يسوق حماراً عليه طعامٌ. فقال رسول الله ﷺ: «أين المُحترق آنفاً»؟ فقام الرَّجل ، فقال رسول الله ﷺ: «تصدَّق بهذا».

فقال: يا رسول الله! أغيرنا؟ فوالله إنَّا لجياعٌ مالنا شيءٌ. فقال ﷺ: «فكلُوه». رواه البخاريُّ ، ومسلمٌ ، وأبو داود ، والنَّسائيُّ[2].

وفي روايةٍ للبُخاريِّ: [قال: «أتجد ما تحرِّر رقبةً؟» قال: لا. قال: «فتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟» قال: لا. قال: «أفتجد ما تطعم به ستين مسكيناً؟» قال: لا].

فلمَّا أعطاه الطعام [قال: «أطعم هذا عنك». قال: على أحوج منَّا؟ ما بين

---

(١) مسلمٌ برقم ١١١٤ بروايتين.

(٢) البخاريُّ بالأرقام ١٩٣٥ و١٩٣٦ و١٩٣٧ ، ومسلمٌ برقم ١١١٢ ، وأبو داود برقم ٢٣٩٤ والنَّسائي في الكبرىٰ ٢/ ٢١٠ برقم ٣١١٠ و٣١١١.

لابتيها أحوجُ منَّا. قال: «فَأطعِمْه أهلك»].

أيّ يُسْرٍ نلمحه في هذه القصَّة؟ وأيّة سماحةٍ؟ رجل تجب عليه الكفَّارة، فيعتذر بالعدم، فلمَّا وجد الطَّعام الَّذي يصلح للكفارة، قال: على من أتصدَّق؟ فيأذن له النَّبيُّ ﷺ أن يطعم أهلَه منها.

* وأخرج الإمام أحمد عن أبي قتادة، عن الأعرابيِّ؛ الَّذي سمع النَّبيَّ ﷺ يقول: «إنَّ خير دينكم أيسَره. إنَّ خير دينكم أيسَره»[1].

* وأخرج أحمد أيضاً عن أبي عروة، قال:

كنَّا ننتظر النَّبيَّ ﷺ، فخرج رَجِلاً يقطر رأسُه من وضوءٍ، أو غسلٍ، فصلَّى، فلمَّا قضى الصَّلاة؛ جعل النَّاس يسألونه: علينا حرجٌ في كذا؟

فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ دين الله في يُسْرٍ» يقولها ثلاثاً[2].

* . . وعن أنس بن مالكٍ؛ قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «يسِّروا، ولا تعسِّروا، وسكِّنوا، ولا تنفِّروا». أخرجاه في الصَّحيحين[3].

* وفي الصَّحيحين أيضاً: أنَّ رسول الله ﷺ قال لمعاذٍ، وأبي موسىٰ حين بعثهما إلى اليمن: «بشِّرا، ولا تنفِّرا، ويسِّرا، ولا تعسِّرا، وتطاوعا، ولا تختلفا»[4].

* وفي السُّنن، والمسانيد: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بُعِثْتُ بالحنيفيَّة السَّمحة»[5].

الغُلوُّ في الدِّين مذمومٌ. . وهو يقطع المسلم في الطَّريق. . . ولا يمكِّنه من

---

(١) المسند ٣/ ٤٧٩.
(٢) المسند ٥/ ٦٩.
(٣) البخاريُّ ١/ رقم ٧٩ و١٠/ رقم ٦١٢٥، مسلمٌ ٣/ ١٧٣٤.
(٤) صحيح البخاريِّ ٨/ رقم ٤٣٤٤، صحيح مسلمٍ ٣/ رقم ١٧٣٣.
(٥) ذكره السُّيوطي في الجامع الصغير، وعزاه إلى الخطيب البغداديِّ عن جابرٍ، وانظر ضعيف الجامع الصَّغير ٢٣٣٦.

بلوغ الغاية. يقول ﷺ: «القصدَ، القصدَ؛ تبلغوا» رواه البخاريُّ[1]. إنَّ القصد في العمل مع المداومة عليه يوصل المرء إلى مقصده، ويبلغ به إلى غايته؛ التي يسعى إليها. أمَّا المبالغة، والغلوُّ، فإنَّهما لا يوصلان، ويذكِّرني هذا بقولهم: «إنَّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقىٰ» وقد رُوي حديثاً، وهو بتمامه:

«إنَّ هذا الدِّين متينٌ، فأوغِلْ فيه برفقٍ، فإنَّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى». قال السُّيوطي في «الجامع الصَّغير»: رواه البزَّار عن جابرٍ. ورمز إلى درجته بالضَّعف. قال المناويُّ في «فيض القدير»[2]: [قال الهيثميُّ في مجمع الزَّوائد ١/ ٦٢: وفيه يحيى بن المتوكِّل أبو عقيل، وهو كذَّابٌ. انتهى. ورواه البيهقيُّ في «السُّنن» من طرقٍ، وفيه اضطرابٌ. ورُوي موصولاً، ومرسلاً، ومرفوعاً، وموقوفاً. واضْطُرِبَ في الصَّحابي: أهو جابرٌ، أو عائشة، أو عمر. ورجَّح البخاريُّ في «التَّاريخ» إرساله][3].

وقال ابن حجر في «الفتح»[4]: [جاء في «كتاب الزُّهد» لابن المبارك حديثُ عبد الله بن عمرو موقوفاً: «إنَّ هذا الدِّين متينٌ، فأوغلوا فيه برفقٍ، ولا تُبَغِّضوا إلى أنفسكم عبادة الله، فإنَّ المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقىٰ»].

وهو مثلٌ مذكورٌ في الأمثال، ذكره الميدانيُّ في «مجمعه»[5].

ومعناه صحيحٌ، وهو صورةٌ رائعةٌ، صورة الرَّجل المنقطع في أوائل الطَّريق، وقد هلكت دابَّتُه؛ لأنَّه أوغل في الإسراع.

---

(١) البخاريُّ ١١/ برقم ٦٤٦٣، وانظر تخريجه قبل صفحات.

(٢) فيض القدير ٢/ ٥٤٤.

(٣) وانظر صحيح الجامع الصغير للألبانيِّ رقم ٢٢٤٦ فقد أورد الشَّطر الأوَّل: «إنَّ هذا الدِّين متينٌ، فأوغلوا فيه برفقٍ» وقال: حسنٌ. وأورد الحديث بتمامه في ضعيف الجامع الصَّغير برقم ٢٠٢٢، وقال: ضعيفٌ.

(٤) الفتح ١١ ص ٢٩٧.

(٥) مجمع الأمثال ١/ ٧.

والغلوُّ ينفِّر النَّاس من دين الله ؛ لأنَّهم يرون الدِّين بهذا الغلوِّ تكليفاً بما لا يُطيقون ، وشرعُ الله لا يكلِّف نفساً إلا وسعها ، ولا يوجب عليها ما لا تطيق.

والغلوُّ طريقٌ إلى الضَّلال ، هلك بسببه مَنْ هلك من الأمم المتقدِّمة من يهودٍ ، ونصارىٰ. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ [النساء: ١٧١].

قال ابن كثير: [ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغُلُوِّ ، والإطراء ، وهذا كثيرٌ في النَّصارى ، فإنَّهم تجاوزوا الحدَّ في عيسى ؛ حتَّى رفعوه فوق المنزلة ؛ الَّتي أعطاه الله إيَّاها ، فنقلوه من حيز النُّبوَّة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله ، يعبدونه ، كما يعبدونه. بل قد غلوا في أتباعه ، وأشياعه ، فمن زعم: أنَّه على دينه ، فادَّعوا فيهم العصمة ، واتَّبعوهم في كلِّ ما قالوه سواءٌ كان حقَّاً ، أو باطلاً ، ضلالاً أو رشاداً ، صحيحاً أو كذباً][1].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾

[المائدة: ٧٧].

قال ابن كثير: [أي: لا تجاوزوا الحدَّ في اتِّباع الحقِّ ، ولا تُطروا مَنْ أُمِرْتُمْ بتعظيمه ، فتبالغوا فيه ؛ حتى تخرجوه عن حيِّز النُّبوَّة إلى مقام الإلهيَّة ، كما صنعتم في المسيح ، وهو نبيٌّ من الأنبياء ، فجعلتموه إلهاً من دون الله ، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضَّلالة ؛ الَّذين هم سلفكم ممَّن ضلَّ قديماً][2].

وكان هذا الغلوُّ في بعض فرق هذه الأمَّة ، فقادهم ذلك إلى الانحراف ،

---

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٥٨٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٨٢.

والابتداع في الدِّين ، والضَّلال في العقيدة . . تذكر كتب التَّاريخ ، والأدب أمثلةً كثيرةً على ذلك . فمن ذلك أنَّ قوماً من هؤلاء المغالين يبالغون في العبادة من صلاةٍ ، وصيامٍ ، وذكرٍ يحقِر المرء عمله أمام عملهم ، ولكنَّهم مع ذلك قد ضـلُّوا ضـلالاً بعيـداً ، ومرقوا من الدِّين كما يمرق السَّهم من الرَّمِيَّة .

إن الإسلام دينٌ أكملَه اللهُ ، فلا زيادة لمستزيدٍ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

إنَّ الغلوَّ في أمرٍ ما لا يمكن أن يستمرَّ ، فلا بدَّ أن يعقبه انقطاعٌ ، وهو أمرٌ مشاهدٌ في الحياة . . . إنَّ الإسلام يريد من أتباعه أن يعملوا بجدٍّ ، ونشاطٍ في ميادين متعدِّدةٍ ، ولكن مع الاقتصاد ، والبعد عن الغلوِّ .

أخرج البخاريُّ في كتاب الرِّقاق في باب القَصْد والمُداومة على العمل حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : كان أحبّ العمل إلى رسول الله ﷺ الَّذي يدومُ عليه صاحِبُه[1] .

وأخرج عنها ـ رضي الله عنها ـ أنَّها قالت : سئل النَّبيُّ ﷺ : أيُّ الأعمال أحـبُّ إلـى الله؟ قـال : «أدومُهـا ؛ وإنْ قـلَّ» وقـال : «اكْلَفُـوا مـن الأعمـال ما تُطِيقون»[2] . إنَّ المبالغة في أمرٍ طيِّب تقلبه إلى ضدِّه ، وتجعله أمراً سيِّئاً ، ومن هنا نرىٰ أنَّ الفضيلة وسطٌ بين رذيلتين ، فالكرم وسطٌ بين البُخل والإسراف ، والشَّجاعة وسطٌ بين الجبن والتَّهوُّر ، وهكذا .

وما أروع قوله ﷺ : «أحبُّ الأعمال إلى الله أدومُها ؛ وإن قلَّ» .

وهذا بيِّنٌ في كلِّ أمرٍ مهمٍّ ، فالقليل الدَّائم خيرٌ من الكثير المُنقطع ، إنَّ رغيفاً يصل إلى أسرةٍ فقيرةٍ كلَّ يوم على الدَّوام خيرٌ من خروفٍ محشيٍّ بالرُّزِّ وأنواع المكسَّرات يُقَدَّم لها يوماً واحداً في العمر . وكذلك فإنَّ الَّذي يقرأ كلَّ يوم جزءاً على مدى العمر خيرٌ ممَّن قرأ في يوم واحدٍ ختمتين ، ولم يعد يقرأ

---

(١) البخاريُّ / برقم ٦٤٦٢ .
(٢) البخاريُّ / برقم ٦٤٦٥ .

بعد ذلك حرفاً من القرآن ، وهناك مثلٌ عاميٌّ جميلٌ يقول: (ساقيةٌ جاريةٌ خيرٌ مِنْ نهرٍ مقطوع).

ولقد كان من الأثر السَّيئ للتَّنطُّع أنْ لبَّس على النَّاس وجه الحقِّ ، وأدخل في أذهان كثيرٍ من النَّاس مفاهيم مغلوطةً عن المتديِّنين ، والتديُّن بسبب بعض هؤلاء الغُلاة المتشدِّدين.

سألني شابٌّ طيِّبٌ متفتِّحٌ: هل صحيحٌ ما يقال: إنَّ كثيراً من الشَّباب المتديِّنين معقَّدون؟ وما دعاهم إلى التديُّن إلا إخفاقُهم في الحياة ، وعقدُهم الَّتي سدَّت في وجوههم منافذ الشُّهرة؟ وتابع كلامه قائلاً: إنَّ هذا قيل لي ، وردَدته ، ولكنِّي تذكرت نماذج ينطبق عليها كلامهم ، وأنا غير مطمئنٍ لصحَّة هذه المقولة ، وأودُّ أن أعرف كيف أردُّها مع وجود هذه النَّماذج؟

فقلت له: إنَّ هذا غيرُ صحيحٍ على إطلاقه ، وأنت محقٌّ في ردِّك هذه المقولة؛ لأنَّ التديُّن يا ولدي! هو ما تدعو إليه الفطرة السَّويَّة.. فالإنسان بطبيعته الَّتي فطره الله عليها متديِّنٌ. وهل نستطيع أن نعُدَّ أكثر النَّاس في بلادنا معقَّدين؟ وإذا صحَّت هذه المقولة بالنسبة إلى عددٍ من الغُلاة المتشدِّدين المتنطِّعين ، الَّذين يذهبون إلى التَّشديد على أنفسهم وعلى النَّاس ، فإنَّها لا تصحُّ بالنِّسبة إلى عامَّة المتديِّنين ، بل ولا بالنسبة إلى كلِّ الغُلاة؛ لأنَّهم أنواعٌ ، وليسوا نوعاً واحداً. وقلت له: قد تصدُق هذه الكلمة على بعض هؤلاء المُتنطِّعين من مثل ما تقصُّه أنباء التاريخ ، وما تقرِّره أحداث الحياة ، والمثل هنا مفيدٌ؛ لأنَّه يوضِّح الأمر ، فقد ذكروا: أنَّ رجلاً مصاباً بعاهةٍ ظاهرة جعلته معقَّداً حاقداً على النَّاس ، عمل في نطاق فرقةٍ ضالَّةٍ منحرفةٍ ، فما برز ؛ لضعف إمكاناته ، ولظروفٍ أخرىٰ ، فنظر ، فرأىٰ: أنَّ المجتمع يقدِّر المتديِّن ، فتظاهر بالتديُّن ، والتَّظاهر بالتديُّن أمرٌ يسيرٌ ، وأضحىٰ يعمل في الوعظ ، وصادف عملُه فراغاً كبيراً ، فبرز ، وأعانه على البروز ناسٌ مغفَّلون ، وبدأ هذا الإنسان المريض يغلو ، ويتنطَّع ، ويتظاهر بالغيرة ، والحرص على الخير ، ويتحرَّق على العمل للإسلام ، وجعل يهاجم أكثر العلماء ، والدُّعاة ،

وينعتهم بالتَّقصير المَشِين ، وقد يتَّهمهم بما ليس فيهم . . . وجرَّ عليه موقفه هذا نفعاً دنيويّاً كبيراً . . . وبعد حينٍ تغيَّرت الأحوال ، فإذا الدُّنيا عند أولئك الَّذين كان يهاجمهم ، فلم يلبث أن تنكَّر لِلَّذين رفعوه ، ووقف في صفِّ الَّذين كان يذمُّهم ، ذلك هو المثل الَّذي ذكرته لذلك الشَّابِّ السَّائل ، فاقتنع ، وانصرف شاكراً .

هؤلاء المعقَّدون من المتنطِّعين يأتون أموراً غريبةً ، ويَظْهَرون بمظاهر متفردةٍ شاذَّةٍ ، فيشدُّون اهتمام الناس إليهم .

وخطورة هؤلاء تكمُن في أن يتبوَّأ واحدٌ منهم مكان التَّوجيه ، والإرشاد .

أجل ؛ إنَّ من أكبر المصائب في أمَّةٍ ما من الأمم أنْ يتولَّىٰ التَّوجيه ، والنُّصح ، والقيادة ، والتَّقويم ، والإدارة ، والوَجاهة ناسٌ مرضىٰ ، معقَّدون ، متنطِّعون .

ولو نظرنا في حال هؤلاء المُتنطِّعين المُتشدِّدين ؛ لوجدنا أنَّهم أنواعٌ :

* فمنهم ناسٌ معقَّدون ، وقد فصَّلنا القول فيهم آنفاً . وهؤلاء يصعب علاجهم .

* ومنهم ناسٌ طيِّبون صادقون ، لم يُتَحْ لهم أن يتعلَّموا . . وقُذِف في قلوبهم التَّديُّن ، فذهبوا إلى التَّشديد بل إلى التَّكفير أحياناً . . وسبب تنطُّعهم الجهل ، وعلاج هؤلاء أن يُعلَّموا مِنْ قِبَلِ مَنْ يثِقون به ؛ وهذا أمرٌ غير يسيرٍ ؛ لأنَّهم فقدوا الثِّقة بكثيرٍ ممَّن يُسَمَّون علماء .

* ومنهم ناسٌ ذوو مزاجٍ قاسٍ ، يميلون إلى التشدُّد سَجِيَّةً ، وعلاجهم العلمُ ، وغرسُ الخوف من الله في قلوبهم .

* ومنهم ناسٌ نشؤوا في بيئةٍ تقوم فيها عاداتٌ وتقاليد ، فأضفوا على هذه العادات ، والتَّقاليد صفةً كبيرةً من الإجلال ، والاحترام ، وأحلُّوها محلَّ الدِّين ، وحكموا على كلِّ ما يخالفها بالحرمة . وعلاج هؤلاء أيضاً التَّعليم ، والتَّرهيب من عذاب الله وغضبه ، عندما يحرمون ما أحلَّ الله .

* ومنهم ناسٌ كانوا عصاةً مسرفين على أنفسهم ، فعندما تابوا ؛ رغبوا في

أن يأخذوا أنفسهم بالعزيمة ، وزادوا ؛ حتَّى انتهوا إلى الغُلُوِّ ، وأرادوا أن يَحْمِلوا النَّاس على ذلك .

* ومنهم ناسٌ مغفَّلون ، مخدوعون ، سمعوا كلاماً من رجلٍ من الأنواع السَّابقة ، فأخذوا به ، وردَّدوه ، ودعوا إليه .

إنَّه لأمرٌ خطيرٌ جداً أن يُلبِس المرءُ هواه لَبُوس الدِّين . إنَّ المسلم الحقَّ هو الَّذي يقف عند حدود الله ، سواءٌ وافقت هواه ، أم خالفته .

* إنَّ هذا التَّشدُّد بأنواعه المختلفة له أسبابٌ متعدِّدةٌ ، وكلُّ ظاهرةٍ اجتماعيَّةٍ لا يمكن أن تكون نتيجةً لسببٍ واحدٍ ، ومن الصَّعب حصرُها في مثل هذه الكلمة ، ويكفينا أن نشير إلى أهمِّها .

عرف الناس في مطلع هذا العصر نخبةً من الرِّجال المثقَّفين ، عاطفتُهم الإسلاميَّة متوقِّدةً ، وغَيرتُهم مُلتهبةً ، ورَغْبَتُهم في أن يعود النَّاس إلى الإسلام عظيمةٌ . . . فتنادوا ، والتقوا . . وشرعوا يدعون إلى الإسلام ، ويكتبون عنه في الصُّحف ، والمجلَّات . . وألَّف بعضهم عدداً من الرَّسائل في الدَّعوة إليه ، وزُيِّنَ لهم أن يتساهلوا حتَّى لا ينفر النَّاس منهم ، فمالوا إلى الأخذ بالقول الأهون ، وقالوا بتتبُّع الرُّخص ، يزعمون أنَّهم يُيَسِّرون الأمر على النَّاس ، وقد يقعون في المخالفات الشَّرعية ، ويلتمسون لأنفسهم المعاذير ، ويحقِرون تلك الذُّنوب ، ويدَّعون : أنَّها يسيرةٌ هيِّنةٌ .

وجاء الطُّغاة فنكَّلوا بأولئك الرِّجال ، وسجنوهم ، وعذَّبوهم ، وقتلوا من قتلوا منهم ، وشرَّدوا من شرَّدوا .

ونشأ جيلٌ جديدٌ رأوا تساهل آبائهم ، وتعذيب الطُّغاة لهم ، فاتَّجهوا إلى الإسلام ، لأنَّهم لمسوا سوء الواقع الَّذي آل إليه مجتمعهم المتنكِّب لطريق الإسلام ، واعتقدوا : أنَّه لا خلاص لهم إلا بالإسلام الحقِّ ؛ الذي بلغهم ، ونقله إليهم الدُّعاة ، ورأوا أنَّ تساهل آبائهم لم يُغن عنهم شيئاً ، ولم يدفع عنهم كيد الأعداء ، وتنكيلهم ، فلماذا يتساهلون ، ولماذا يعطون الدَّنِيَّة؟ فشكَّل هذا الواقع حساسيةً عند هؤلاء النَّاشئة ، فأخذوا أنفسهم بالعزيمة . . . ثمَّ

أصبحوا يميلون إلى التَّشدُّد في كلِّ شيءٍ ، ينظرون في أقوال العلماء في المسألة الواحدة ، وليسوا أهلاً للنَّظر ، فيذهبون إلى أشدِّها ، وأصعبها ، ولو كان هذا القول لا يستند إلى دليلٍ قويٍّ .

إنَّك لتلقى هؤلاء يحرِّمون كثيراً من الأمور . . . إنَّهم في كلِّ أمرٍ دقَّ ، أو جلَّ يقولون : إنَّه حرام . ويسعدون عندما يقفون على رأيٍ لعالمٍ متقدِّمٍ ، أو معاصرٍ يقول بقولهم . . . إنَّ كلمة : (حرام) تتردَّد كثيراً على ألسنتهم ، يقولون : استعمال الصَّابون الفلانيِّ حرامٌ ، وأكل الدَّجاج المستورد حرامٌ ، ومسّ المُصحف بغير وضوءٍ حرامٌ . . . إلى غير ذلك من المسائل . وقد يكون بعض ما يقوله هؤلاء صحيحاً ، ولكن التَّحليل والتَّحريم له أهلُه ، ومنهجُه ، ووسائله العلميَّة .

ذكرنا : أنَّ من أسباب اتِّجاه بعض النَّاشئين إلى الغُلوِّ ما رأوه من الجيل السَّابق لهم ؛ ممَّن كان يدعو إلى الإسلام .

كان ذلك الجيل مجاملاً مترفِّقاً ، يتنازل عن عددٍ من القيم الإسلاميَّة ، ويسهِّل على النَّاس سبيل التَّديُّن بتتبُّع الرُّخص ، والتَّقليل من شأن بعض المعاصي الَّتي ألفها النَّاس ، وكانوا يسوِّغون ذلك بالمصلحة . وهذا خطأٌ . ومع ذلك فلم ينج ذاك الجيل من التَّنكيل ، والسَّحق ، وتلقِّي أشدَّ العذاب مِنْ قِبَل الكفَّار ، وأعداء الدِّين ، فدفع ذلك الشَّباب النَّاشئين إلى الأخذ بالعزيمة ، وجاوزوا ذلك إلى التَّشدُّد والغلوِّ ، وتحريم ما أحلَّ الله ، والحكم على النَّاس بالكفر ، والفسُوق ، وما إلى ذلك .

والحقُّ : أنَّ هذا الموقف من هؤلاء النَّاشئة لا يقلُّ انحرافاً عن موقف سلفهم السَّابق . وربما اندفع المرء للوهلة الأولىٰ لأنْ يحترم أصحاب هذا الموقف لصلابتهم ، ولمواجهتهم المجتمع بقوَّةٍ ، والخروج عليه بجرأة . . ولكنَّ النَّاظر المتأمِّل في حقيقة هذا الموقف يخشىٰ أن يكون هناك دافعٌ شيطانيٌّ ، للنَّفس فيه سلطانٌ .

فصاحب هذا الموقف يُخشىٰ أن يُريدَ بقوله ، وفتواه أن يلفتَ الأنظار إليه ،

أو أن يريدَ باتِّهامه المخالفين له بالتَّساهل في الدِّين أن يبيِّن : أنَّه هو القائم بأمر الدِّين ، والفاهِمُ له .

إنَّ الشَّيطان قد يركب بعض هؤلاء بالغُلُوِّ ، والرِّياء ، وحبِّ الظُّهور بمظهر الزُّهَّاد الورعين .

ذكر ابنُ الجوزيِّ في كتابه الجميل : «القُصَّاص والمذكِّرين» أنَّ من الوعَّاظ من يتخاشع زيادةً على ما في قلبه ، ومنهم مَنْ يتباكى . . . بل ذكر : أنَّ منهم من يصفرُّ وجهه ؛ ليبدو زاهداً ، قال :

[وَمِنْ ذاك تخاشعُ الواعظ زيادةً على مافي قلبه ، وفيهم مَنْ يرتعد ، ويتباكىٰ تصنُّعاً][1] قلت : وما أكثر ما رأينا هؤلاء الَّذين يتصنَّعون التَّباكي من الوعَّاظ ! وقد يؤثِّرون في بادئ الأمر[2] ، ولا سيَّما على البُسطاء .

قال ابن الجوزيِّ : [ورأيت في كتابٍ صنَّفه عزيزي : أنَّ في القُصَّاص مَنْ يتبخَّر بالزَّيت ، والكمُّون ، ليصفرَّ وجهه . وبلغني : أنَّ منهم من يُمْسِك معه ما إذا شمَّه سال دمعُه ، وفيهم مَنْ يَخْرِق أثوابه . . .][2] وربما قادهم إلى النِّفاق أيضاً .

وهناك أمرٌ آخر في غاية الخُطورة ، وهو : أنَّ المبالغة ، والغُلُوَّ في الدِّين ، وما شابه ذلك لا يمكن أن يستمرَّ ذلك طويلاً ، لا بالنِّسبة للفرد الواحد . . . على المدى الطويل ، ولا بالنسبة للجماعة ، فانقلابُهم ـ إذا حدث ـ يزعزع كثيراً من النَّاس ، وقد يخرجُهم من الدِّين ، والعياذ بالله تعالى !

صحيحٌ ما قلناه عن انحراف الغالين المُتنطِّعين ؛ الذين يحرِّمون ما أحلَّ الله ، ويبتدعون ، ويزيدون في الدِّين ما لم يُشَرِّعه الله ، ولكن هذا شيءٌ ، وما يُلصِقُه الكفَّار ، وأعداء الدِّين من تهمة الغُلُوِّ ، والتَّطرُّف بالنَّاس شيءٌ آخر .

إنَّ هؤلاء المعادين للدِّين يُطلقون هذه التُّهم على كلِّ مَنْ يصلِّي ، ويصوم ،

---

(١) كتاب : القُصَّاص والمُذَكِّرين ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

(٢) كتاب : القُصَّاص والمُذَكِّرين ٢٩٦ .

ويلتزم بما أمر الله به ، وينتهي عمَّا نهىٰ الله عنه .

وقد يُحرِّض الكفار على هؤلاء النَّاس الأفاضل أتباعهم ، وعملاءَهم ، فَيُغْرون بهم مَنْ يغرون ، فيوقع بهم الأذى ، وينتهرهم ، ويسخر منهم .

وهذا حِقْدٌ على المتديِّنين ، وإساءةٌ إلى المسلمين ، وكيدٌ للدِّين .

إنَّهم شعروا : أنَّ هذه الصَّحوة الإسلاميَّة خطرٌ عليهم ، فرصدوا الأموال ، ورسموا الخُطط ؛ لتحجيم هذه الصَّحوة ، واحتوائها ، وتفريغها من مضمونها ، وضربها . هذا من جهةٍ .

وعملوا ـ من جهةٍ أخرىٰ ـ على الكيد للشَّباب الأبرياء الصَّالحين ، الصَّادقين ، فكالوا لهم التُّهم ، وأغرَوا بهم مَنْ يزدريهم ، ويحتقرُهم ، ويسومُهم سوء العذاب . ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٦] .

إنَّ الإسلام الحقَّ ـ كما أنزله الله ـ لا يضرُّ أحداً ، ولا يؤذي أحداً . . إنَّه يحقِّق السَّعادة التامَّة للنَّاس جميعاً في الدُّنيا ، والآخرة ، ويقيم العدالة في المجتمع ، ويقضي على الفقر ، والبؤس ، والظُّلم .

لقد تعدَّدت الألقاب الَّتي تُلصق بهؤلاء المتديِّنين الصَّادقين : فتارةً يدعونهم مُتطرِّفين ، وتارةً أخرىٰ يدعونهم أصوليِّين ، وتارةً ثالثة يدعونهم راديكاليِّين ، وتارةً رابعةً يدعونهم مُتشدِّدين ، . . .

يجب أن نقول كلمة حقٍّ بالنِّسبة إلى عددٍ من هؤلاء المُغالين المُنحرفين :

إنَّ بعض هؤلاء ما وقع في الانحراف إلا نتيجةً لما عاناه من ظلم الظَّالمين ، وعدوان المعتدين ، وجبروت الطُّغاة السَّفاكين .

ألقوهم في غياهب السُّجون ، ﴿ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨] ، وشرَّدوا آباءهم ، وإخوانهم ، وأقرباءهم ، ونشروا في صفوفهم الذُّعر القاتل ، والرُّعب المُميت ، وضيَّقوا عليهم ، وحاربوهم في أَرْزَاقهم ،

وصادروا حرِّيَّاتهم ، فلا يُسمح للطَّليق منهم أن يكتب ، ولا أن يتكلَّم ، ولا أن يقول ما يعتقد ناصحاً ، وداعياً إلى دين الله ، واغتصبوا كرامتهُم ، وأهانوهم أعظمَ الإهانة . . . فلم يجدوا أمامهم إلا هذا المسلك الشَّاذَّ ، فسلكوه .

ومهما يكن من أمر العوامل الَّتي حملت هؤلاء على هذا المنهج المُنحرف ، فإنَّ حكمنا عليهم : أنَّهم مُخطئون ، وأنَّ منهجهم منحرفٌ مرفوضٌ ، وأنَّ واقعهم قد يخرج بهم عن دائرة الشَّرع بالكلِّيَّة .

* * *